البَابُ الأولُ

دراســة ممهــدة

الفصل الأول

اللحن

معناه ـ نشأته ـ مظاهره الأولى

اللحن

معناه ـ نشأته ـ مظاهره الأولى

معنى اللحن

اللحن الذى يرد ذكره فى هذا الكتاب والذى سمى به نوع من التأليف فى اللغة العربية ، هو الخطأ (١) فى اللغة : أصواتها، أو نحوها ،أو صرفها ، أو معانى مفرداتها .

ودلالة لفظ « اللحن » على هذا المعنى متأخرة ،سبقتها دلالات أخرى ، و « أغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى ، عند ما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم ، إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون» (٢) .. وهذا يدل عليه قول أحمد بن فارس : « فأما اللحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية ، يقال : لَحِن لَحْناً ، وهذا عندنا من الكلام المولّد، لأن اللحن محدث، لم يكن فى العرب العاربة ،الذين تكلموا بطباعهم السليمة»(٣) .

وفى سبيل محاولة تحديد نشأة هذه الدلالة للحن، وصلتها بدلالاته الأخرى ، رأينا أن نورد كل دلالات المادة وشواهدها فى كتب الأدب والمعجمات :

لعل أول معنى لهذا اللفظ هو ما ذكره أحمد بن فارس، وهو « إمالة شىء

---

(١) سنتناول فيما بعد مفهوم الخطأ والمقياس الصوابى ، عند اللغويين الذين ألفوا فى اللحن .

(٢) يوهان فك : العربية : ٢٤٥

(٣) مقاييس اللغة : ٥ ـ ٢٣٩

عن جهته » (٤) ثم تحددت دلالة هذا المعنى العام ، فكانت للّفظ الدلالات الآتية :

أولا : الغناء وترجيع الصوت والتطريب :

والمعنى العام ملحوظ فى هذه الدلالة ، إذ هى « إزالة للكلام عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان فى الترنُّم(٥) » . ومن شواهد هذا المعنى قول يزيد بن النعمان :

لقد تركَتْ فؤادكَ مُسْتَجنًّا ... مطوَّقةٌ على فنَن تَغنَّى
يَميل بها وتركَبُه بلحْن ... إذا ما عَنَّ للمحزون أنَّا
فلا يَحزُنْكَ أيَّامٌ تَوَلَّى ... تَذَكّرها ولا طيرٌ أرَنَّا(٦)

وقول آخر (٧) :

وهاتفَيْنِ بشَجْوٍ بعدما سَجَعَتْ ... وُرْقُ الحَمام بترجيع وإرنانِ
ياتا على غصنِ بانٍ فى ذُرا فنَنٍ ... يرددان لحوناً ذاتَ ألوان (٨)

وقول آخر (٩) :

وما هاج هذا الشوقَ إلا حمامةٌ ... تَغنَّتْ على خضراءَ سُمْرٍ قيودُها
صَدُوح الضُحا مع رَوقة اللحن لم تَزل ... تقود الهوى من مُسعِدٍ ويقودها(١٠)

---

(٤) مقاييس اللغة : ٥ — ٢٣٩ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) الأبيات فى اللسان (لحن) والامالى : ١ — ٦ ، ولكن القالى استشهد بها على معنى آخر كما سيأتى .
(٧) هو ابن مخرمة السعدى كما فى السمط : ١ — ٢٠ .
(٨) اللسان : (لحن) .
(٩) هو على بن عميرة الجرمى كما فى السمط : ١ — ١٩ .
(١٠) البيتان فى الأضداد لابن الأنبارى : ٢٤١ والأمالى : ١ — ٥ والسمط : ١ — ١٩ .

وقد جاء النصان الأخيران فى « الأضداد » لابن الأنبارى (١١) شاهدين على اللحن بمعنى اللغة ، وجاءت النصوص الثلاثة فى أمالى القالى (١٢) ، للاستشهاد على هذا المعنى نفسه .

وقد استدرك أبو عبيد البكرى على هذا الاستشهاد فقال (١٣) : « وهذا وهم من أبى على ، وإنما المراد به اللحن الذى هو ضرب من الأصوات المصوغة للتغنى ، والدليل على ذلك قوله :

• مطوّقة على فنن تغنى •

وقول الآخر :

• يرددان لحونا ذات ألوان •

إنما أراد ذات ألوان من الترجيع ، كما قال فى البيت :

... ... بترجيع وإرنان »

وهذا الذى ذكره البكرى هو الصحيح ، وقد جرى عليه صاحب « لسان العرب » .

ومن شواهد هذا المعنى أيضاً قول جهم بن خلف :

تغنّت عليه بلحن لها يهيّج للصبّ ما قد مضى (١٤)

وقول جُحْدر الذى حبسه الحجّاج فقال من قصيدة له فى حبسه :

تجاوبتا بلحن أعجمىّ على غصنين من غرب وبان (١٥)

---

(١١) ٢٤١ .
(١٢) ١ — ٥ ، ٦ .
(١٣) السمط : ١ — ٢١ .
(١٤) الحيوان : ٣ — ١٩٩ .
(١٥) أمالى القالى : ١ — ٢٨٢ .

ومن الأمثال في هذا المعنى : « ألحنُ من الجرادتين » (١٦) و « ألحنُ من قَيْنَتَي يزيد » (١٧) .

ثانياً : أن تريد الشيء فتورى عنه ، أو ترمز إليه بقول آخر :

والمعنى العام ملحوظ فى هذه الدلالة أيضاً، فالتورية أو الرمز ميل عن التعبير الواضح الصريح ، ويقال منه : لحَنت لفلان لَحْناً ، إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره ، ولَحِنَهُ عنى لَحَناً أي فهمه .

ومن شواهد هذا المعنى قول القتّال الكلابى :

ولقد لحَنتُ لكم لكيما تَفْقَهوا ... ووحيتُ وَحْياً ليس بالمرتاب (١٨)

وبهذا المعنى فسر قول مالك بن أسماء بن خارجة الفَزارى فى جارية له :

مَنطقٌ صائبٌ وتلحن أحيا ... ناً وخير الحديث ما كان لحنا (١٩)

---

(١٦) مجمع الأمثال : ٢ — ٢٠٧ والجرادتان قينتان لمعاوية بن بكر المعليقى .

(١٧) المصدر السابق : ٢ — ٢٠٥ والقينتان هما حبابة وسلامة مغنيتا يزيد بن عبد الملك .

(١٨) فى الديوان : ٣٦ (تحقيق احسان عباس) : بلا خلاف فى اللفظ . وفى اللسان (لحن) لكيما تفهموا .... والأضداد : ٢٤٠ لكيما تفقهوا ، والأمالى : ١ — ٤ (وذهب أبو على الى أن معنى لحنت لكم : بينت لكم وان اللحن هو معنى القول ومذهب القول) . وفى أمالى المرتضى : ٢ — ١٤ لكيما تفطنوا .

وفى التنبيه على حدوث التصحيف : ٩٧ قال : « والمعنى يتكلم بالشيء ويريد غيره » .

(١٩) البيت فى البيان والتبيين : ١ — ٤٦ وعيون الأخبار : ٢ — ١٦٢ والملاحن : ٧ ، وأمالى القالى : ١ — ٦ وسمط اللآلى : ١ — ١٦ والعقد الفريد : ٢ — ٣٨٠ والأضداد لابن الأنبارى : ٢٤١ والتنبيه على حدوث التصحيف : ٩٧ والأساس واللسان مع اختلاف فى رواية وصف « منطق » : فهو : صائب ، بارع ، رائع ، واضح . والشطر الثانى : خير الحديث، أحلى الكلام .

وقد فسَّر اللحن فى البيت بهذا المعنى :

١ ــ أبو بكر بن دريد ، فقد روى عنه أبو على القالى قوله : « تُعْوِص فى حديثها فتزيله عن جهته ، لئلا يفهمه الحاضرون ، وخير الحديث ما كان لحناً : أى ما فهمه صاحبك الذى تحب إفهامه وحده (٢٠) » . وفى « الملاحن » لابن دريد (٢١) : « أى أنها تعرِّض فى كلامها وحديثها فتزيله عن جهته » .

٢ ــ أبو عبيد البكرى ، وقد روى ما قاله الحجاج لهند بنت أسماء ، من أن المرأة فطنة ، فهى تلحن بالكلام إلى غير المعنى الظاهر لتوارى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتعريض (٢٢) .

٣ ــ حمزة بن الحسن الأصبهانى ، أيد قول ابن دريد إنها تتكلم بالشىء وهى تريد غيره من فطنتها وذكائها (٢٣) .

٤ ــ الشريف المرتضى ، أيد ما قيل من أن المراد اللحن فى القول ، إذا كنى المحدث عما يريد ، وعلق على البيت بأنه « إنما أراد الكناية عن الشىء ، والتعريض بذكره ، والعدول عن الإفصاح عنه (٢٤) » .

٥ ــ ابن رشيق ، حيث قال : « ومن الإشارات اللحنُ ، وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان على غير وجهه ... وإلى هذا ذهب الحُذَّاق فى قول الشاعر : منطق صائب . . . » (٢٥) .

٦ ــ الزمخشرى ، حيث قال فى الأساس (لحن) : « . . . ولحنت له

---

(٢٠) الأمالى : ١ ــ ٦ .
(٢١) ص : ٧ .
(٢٢) سمط اللآلى : ١ ــ ١٦ .
(٢٣) التنبيه على حدوث التصحيف : ٩٧ .
(٢٤) أمالى المرتضى : ١ ــ ١٤ .
(٢٥) العمدة : ١ ــ ٢١٠ .

لحناً قلت له ما يفهمه عنى ، ويخفى على غيره ، وعرفت ذلك فى لحن كلامه :: فى فحواه وفيما صرفه إليه من غير إفصاح به ، قال :

منطق واضح ..... البيت » .

٧ — وروى فى اللسان عن « الليث » أن تأويل الشطر الثانى من البيت :

« وخير الحديث من مثل هذه الجارية ، ما كان لا يعرفه كل أحد ، إنما يعرف أمرها فى أنحاء قولها » .

وللحن فى بيت مالك بن أسماء تفسيران آخران هما : الصواب ، وإلى ذلك ذهب ابن الأنبارى إذ قال : « تلحن : تصيب وتفطن ، وأراد بقوله : ما كان لحناً : ما كان صواباً » (٢٦). والخطأ فى اللغة ، وإلى هذا ذهب الجاحظ (٢٧) وابن قتيبة (٢٨) وابن عبد ربه (٢٩) ، وسنعلق على هذا الرأى عند عرض المعنى الثالث للحن .

ومن شواهد اللحن بمعنى التورية والرمز قوله تعالى : (ولَتَعْرِفَنَّهم فى لَحْنِ القَوْلِ) (٣٠) وهو أحد أقوال فى تفسير الآية ، فقد قال أبو عبيد (٣١) : « فى فحواه وفى معناه ، وفى مذهبه » . وقال أبو على القالى (٣٢): « فى معنى القول وفى مذهب القول » . وقال الزمخشرى (٣٣) :

---

(٢٦) الأضداد : ٢٤١ .

(٢٧) البيان والتبيين : ١ — ١٤٦ .

(٢٨) عيون الأخبار : المقدمة و ٢ — ١٦٢ .

(٢٩) العقد الفريد : ٢ — ٤٨٠ .

(٣٠) سورة محمد : ٣٠ .

(٣١) غريب الحديث : ١٣٢ .

(٣٢) الأمالى : ١ — ٤ والآية على رأى ابى عبيد والزمخشرى شاهد على معنى آخر للمادة هو المعنى والفحوى .

وفى خزانة الأدب : ٢ — ٨٣ « ولحن القول ، قال الأزهرى : هو كالعنوان والعلامة تشير بها فيفطن المخاطب لغرضك » .

(٣٣) الكشاف : ٣ — ٤٥٩ .

« وقيل: اللحن أن تلحن بكلامك أى تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطُن له صاحبك كالتعريض والتورية ، قال :

ولقد لَحَنْتُ لكم لكيما تفقهوا واللحـــن يعرفه ذوو الألبـــابِ »

وفسر ابن الأنبارى اللحن فى الآية بما فسره به فى البيت ، قال: « أى فى صواب القول وصحته (٣٤) » .

وقال الشريف المرتضى فى الآية ما قاله فى بيت مالك ، أى « الكناية عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الإفصاح عنه » (٣٥) .

ومن شواهد هذا المعنى أيضاً: ما روى عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — « أنه فى غزوة الخندق أرسل سعد بن عبادة وعبد الله بن رَواحة وخَوات ابن جُبير إلى بنى قريظة ليتبينوا هل يريد بنو قريظة أن ينكثوا عهدهم مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقال لهم: فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه (٣٦) » . فلما رجع الرسل ذكروا لفظى : (عَضَل والقَارة) وهما قبيلتان غدرتا بأصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — من قبل ، فعلم — صلى الله عليه وسلم — من ذلك أن بنى قريظة نكثوا عهدهم .

ثالثاً : الخطأ فى اللغة :

وهو راجع أيضاً إلى المعنى العام الذى ذكرناه وهو « إماله الشيء عن جهته » وقد أورد الزمخشرى لفظ « مال » فى تفسيره اللحن بهذا المعنى ، قال فى الأساس (لحن) : « لحن فى كلامه ، إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ » .

ولعل أقدم الشواهد الشعرية على استعمال « اللحن » فى هذا المعنى ،

---

(٣٤) الأضداد : ٢٣٨ .
(٣٥) أمالى المرتضى : ١ — ١٤ وما بعدها .
(٣٦) الروض الأنف : ٢ — ١٩٠ .

الشواهد الأربعة التالية ، للحكم بن عبدل الأسدى (ت نحو ١٠٤ هـ) ويحيى ابن نوفل الحميرى (ت نحو ١٢٥ هـ) ورؤبة بن العجاج (ت ١٤٥ هـ) ، والسيد الحميرى (ت ١٧٣ هـ) .

أما بيت الحكم بن عبدل الأسدى فقد قاله فى هجاء حاجب عبد الملك بن بشر بن مروان والى البصرة (١٠٢ — ١٠٣ هـ) ليحمل الأمير على إقالته ، وهو :

ليت الأمـيرَ أطـاعنى فشَمَّيتـه
من كل مَن يُكنى (٣٧) القصيد ويَلْحَنُ (٣٨)

وبيت يحيى بن نوفل الحميرى ، قاله فى هجاء خالد بن عبدالله القَسْرى والى العراق (١٠٥ — ١٢٠ هـ) وهو :

وألحنُ النـاسِ كلَّ النـاس قاطبـةً
وكان يُولَع بالتشـديق والخطَبِ (٣٩)

أما رجز رؤبة بن العجاج فهو فى أرجوزته التى مدح بها بلال بن أبى بُردة ، وهو :

• فزتُ بقِـدْحَىْ معربٍ لم يَلحنِ (٤٠) •

وقول السيد الحميرى (إسماعيل بن محمد) :

وإنى لسـانى مِقـولٌ لا يخـونُنى
وإنى لمـا آتى مـن الأمـر متقـنُ

---

(٣٧) الاكفاء فى الشعر : أن يخالف بين قوافيه ، بعضها ميم وبعضها نون ، وبعضها دال وبعضها طاء مثلا . وفسر الفراء الاكفاء بأنه المخالفة بين حركة الروى ، فهو مثل الاقواء (الصحاح : كفأ) .

(٣٨) الحيوان : ١ — ٢٤٩ .

(٣٩) البيان والتبيين : ٢ ٢١٦ .

(٤٠) اللسان : لحن .

أحـــوك ولا أُقـــوى ولســـتُ بـــلاحنٍ
وكم قائلٍ للشعر يُقوِى ويلحَن (٤١)

ويعد من الشواهد على اللحن بمعنى الخطأ، عند بعض العلماء، قول مالك ابن أسماء بن خارجة :

منطق صائب وتلحـــن أحيـــا نـاً وخير الحديث ما كان لحنا

فقد فسر الجاحظ اللحن هنا بالخطأ، قال : « اللحن من الجوارى الظّراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف . . . وقد قال مالك بن أسماء فى استملاح اللحن من بعض نسائه :

وحـــديثٌ ألَـــذُّه هـــو ممَّا يَنعتُ النا عتُون يوزن وزنا (٤٢)
منطـــق صـــائب وتلحَن أحيا نـاً وأحلى الحديث ما كان لحنا

وتابعه فى ذلك ابن قتيبة (٤٣)، وابن عبد ربه (٤٤).

وقد عارض هذا الرأى لفيف من العلماء، كأبى بكر ابن الأنبارى، وحمزة ابن الحسن الأصبهانى، وعلى بن المنجّم، والسيد المرتضى، وأبى عبيد البكرى.

فأبو بكر ابن الأنبارى يقول فى كتابه « الأضداد » (٤٥) : « وقال ابن قتيبة : اللحن فى هذا البيت الخطأ، وهذا الشاعر استملح من هذه المرأة ما يقع فى كلامها من الخطأ.

قال أبو بكر : وقوله عندنا محال، لأن العرب لم تزل تستقبح اللحن من

---

(٤١) الموشح : ١٤ .
(٤٢) البيان والتبيين : ١ — ١٤٦ .
(٤٣) عيون الأخبار : المقدمة، و ٢ — ١٦٢ .
(٤٤) العقد الفريد : ٢ — ٤٨٠ .
(٤٥) ص : ٢٤١ وما بعدها .

النساء، كما تستقبحه من الرجال ، ويستملحون البارع من كلام النساء، كما يستملحونه من الرجال ، والدليل على هذا قول ذى الرمة :

لها بَشَرٌ مِثلُ الحريرِ ومَنطِقٌ رَخيمُ الحواشى لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

فوصفها بحسن الكلام ،واللحن لا يكون عند العرب حسناً إذا كان بتأويل الخطأ ، لأنه يقلب المعنى ، ويفسد التأويل الذى يقصد له المتكلم » .

ويسوق ابن الأنبارى شواهد أخرى على أن العرب تستقبح اللحن وتستخفه، وتستملح جودة المنطق ، وحلاوة الكلام (٤٦) .

ولكن ابن الأنبارى لا يقدم للحن هنا تفسيراً مقبولاً ، فهو يقول : « أراد تلحن : تصيب وتفطُن . وأراد بقوله: ما كان لحناً : ما كان صواباً (٤٧)» وتابعه على ذلك أبو على القالى (٤٨) ، وأسند هذا الرأى إلى ابن الأعرابى .

وردّ على الجاحظ حمزة بن الحسن الأصبهانى (٤٩) فى كتابه «التنبيه على حدوث التصحيف »(٥٠) فذكر أن الجاحظ أخطأ فى كتاب « البيان »، فى تفسير قول مالك بن أسماء بن خارجة حين وصف جارية ، فقال :

منطق رائع وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

فقال الجاحظ : يستظرف من الجارية أن تكون غير فصيحة، وأن يعترى منطقها اللحن ، قال ابن دريد: وليس معنى اللحن ههنا ما ذكر ، وإنما أراد أنها تتكلم بالشىء وهى تريد غيره من ذكائها وفطنتها .وهذا كما قال الله تعالى: (ولَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القول) ، وكما قال القتّال الكلابى :

ولقد وحيت لكم لكيما تفهموا ولحنت لحناً ليس بالمرتاب

---

(٤٦) الأضداد : ٢٤١ ــ ٢٤٦ .
(٤٧) المصدر نفسه .
(٤٨) الأمالى : ١ ــ ٥ .
(٤٩) توفى ٣٥١ هـ .
(٥٠) ص : ٩٢ (تحقيق محمد أسعد طلس) .

أما السيد المرتضى فقد ساق فى أماليه (٥١) ما قاله الحجاج لهند بنت أسماء حين استشهدت ببيت أخيها على اللحن بمعنى الخطأ، وما دار بين على بن المنجم (٥٢) والجاحظ فى هذا التفسير بعد ذيوعه فى كتابه ، فالحجاج يقول لهند : « إنما عنى أخوك اللحن فى القول، إذا كنى المحدث عما يريد، ولم يعن اللحن فى العربية ، فأصلحى لسانك » .

وعلى بن المنجم يقول للجاحظ : « مثلك فى عقلك وعلمك فى الأدب » ينشد قول الفزارى ويفسره ، على أنه أراد اللحن فى الإعراب؟ وإنما أراد وصفها بالظَّرف والفطنة وأنها تورى بما قصدت له ، وتتنكب التصريح به ؛ فقال له الجاحظ : قد فطنت لذلك بعدُ. فرد عليه ابن المنجم : فغيره فى كتابك . فقال : كيف بما سارت به الركبان» . وروى أبو عبيد البكرى مثل ذلك فى « سمط اللآلى » (٥٣) .

وقد دافع عن تفسير الجاحظ أبو حيان التوحيدى ، وحاول تسويغ حمل اللحن فى بيت مالك بن أسماء على الخطأ فى الكلام ، وإن جاز تفسيره أيضاً بالرمز والإشارة (٥٤) . وقال الزَّبيدى بعد البيت : « أى إنما تخطىء فى الإعراب ، وذلك أنه يستملح من الجوارى ذلك ، إذا كان خفيفاً ؛ ويستثقل منهن مطلق الإعراب » (٥٥) .

ومن المحدثين يقف الدكتور إبراهيم أنيس إلى جانب الجاحظ وابن قتيبة، إذ يقول فى كتابه « مستقبل اللغة العربية المشتركة » (٥٦) : « ولكن نقاد

---

(٥١) ١ — ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .
(٥٢) توفى ٢٧ هـ .
(٥٣) ١ — ١٦ .
(٥٤) يوهان فك : العربية : ٢٤٢ .
(٥٥) تاج العروس : (لحن) .
(٥٦) ص : ١٦ .

الجاحظ وابن قتيبة لم يستسيغوا تفسيرهما ، وذهبوا إلى تفاسير أخرى ، لا تخلو من التكلف والتعسف ، مثل أن يقال : إن الكلمة من أسماء الأضداد وهى فى البيت بمعنى الصواب . وفسرها بعضهم بمعنى الرمز والإشارة ، وفسرها آخرون بمعنى الغناء ، ولم يخطر فى ذهن هؤلاء النقاد أن هذا الكلام من عبث الشعراء ، ومغالاتهم ، فالشاعر يعجب بجاريته ، ويلذ له كل شىء فيها ، حتى حين تلحن ، وتنحرف عن الصواب ، ولا يصح من أجل هذا أن ينظر إلى البيت نظرة المنطق والعقل » .

وهذا حق ، فإن حجة الذين ردوا على الجاحظ وابن قتيبة إنما قامت على إنكار استملاح اللحن وإن كان من الجوارى الملاح ، والكواعب الحسان ، ولم تقم الحجة على أسس جمالية ، ولم تقدم دليلاً قاطعاً على أن الشاعر لم يرد أنها تتكلم أحياناً بغير إعراب ، أو تبدل صوتاً بصوت ، والشاعر يستملح منها ذلك لطرافته . وإنه لمن الممكن أن يكون قوله : وأحلى الحديث ما كان لحناً ، مبالغة فى تصوير إعجابه بجاريته حين يقع منها أحياناً هذا اللحن اللغوى الذى يجعله الحب خفيفاً على سمعه ، لطيفاً على وجدانه ، وما بال هؤلاء لم ينكروا على الفراء لحنه مرات عند الرشيد ، وقوله فى تعليل ذلك : « إن طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت فاستحسن الرشيد قوله (٥٧) » ، وقد علق اليافعى على ذلك بقوله : « إن عادة المنتهين فى النحو أنهم لا يتشددون بالمحافظة على إعراب كل كلمة عند كل أحد ، قد يتكلمون بالكلام الملحون تعمداً على جارى عادة الناس » (٥٨) .

فلا بأس من أن تتكلم الحسناء بالكلام الملحون أحياناً ، ولا ضير على صاحبها إذا استعذب لحنها أحياناً ، حتى لو جعله أعذب الحديث .

---

(٥٧) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : ١٤٣ .

(٥٨) مرآة الجنان : ٢ — ٣٩ .

رابعاً : اللهجة الخاصة (٥٩) :

وهذه الدلالة تدخل أيضاً ضمن المعنى العام . وهو الميل، فاختلاف اللهجة عن اللغة المشتركة يعد ميلا عنها بوجه ما (٦٠) .

ومن شواهد هذه الدلالة قول الأعرابية الكَلْبية :

وقـــومٌ لهم لَحْنٌ سـوى لحـــنِ قومنـــا
وشَكلٌ وبيتِ اللهِ لسنا نُشـــاكلُهْ (٦١)

وقول شَريك عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة في تفسير العرم في قوله تعالى:

(فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ) (٦٢) ، قال : العَرِم : المُسَنَّاة بلحن اليمن ، أي بلغة اليمن (٦٣) .

وقول عمر – رضي الله عنه –: « أُبَى أَقْرَؤُنا » ، قالوا: « إنا لنرغب عن كثير من لحنه ، أي من لغته (٦٤) . والمراد اللهجة .

وقول أبي مَهدى : « ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي (٦٥) .

---

(٥٩) روى ابن الأعرابي أن اللحن بمعنى اللغـــة مفتوح الحـــاء . (اللسان وتاج العروس) .

(٦٠) وقد فسر الزمخشري اللحن بهذا المعنى بقوله : يقال هذا ليس من لحني ولا من لحن قومي ، اي من نحوي وميلي الذي أميل اليه واتكلم به ، يعني لغته .

(٦١) اللسان والتاج (لحن) .

(٦٢) سورة سبأ : ١٦ .

(٦٣) الأضداد لابن الأنباري : ٢٤٠ ؛ والامالي : ١ – ٥ واللسان (لحن)

(٦٤) اللسان (لحن) .

(٦٥) اللسان (لحن) وقد قال ابو مهدي هذه العبارة ردا على اليزيدي، حين قال له « ليس ملاك الأمر الا طاعه الله » برفع طاعة مع أن أبا مهدي حجازي ينصب خبر ليس بعد الا (راجع مجالس العلماء للزجاجي : ٢) .

وقد استشهد أبو بكر ابن الأنبارى ، وأبو على القالى ، على أن معنى اللحن اللهجة ، بقول على بن عُميرة الجرمى (٦٦) :

وما هاجَ هذا الشوقَ إلا حمامةٌ
تبكَّتْ على خضراءَ سُمْرٍ قُيودُها

هَتوفُ الضحى معروفةُ اللحن لم تزَل
تقودُ الهوى من مُسعد ويقودُها (٦٧)

وقول ابن مخرمة السعدى فى حمامتين :

ياتا على غصن بانٍ فى ذُرَا فَنَنٍ
يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ ألوانِ (٦٨)

وزاد أبو على القالى قول يزيد بن النعمان :

لقد تركَتْ فؤادَك مُستَجَنًّا
مُطوَّقةٌ على فَنَنٍ تَغَنَّى (٦٩)

يَميل بها وتَركَبُه بلحن
إذا ما عنَّ للمحزون أنّا

وواضح أن اللحن فى هذه الأبيات بمعنى الغناء ، وليس بمعنى اللغة (اللهجة) . وقد قال أبو عبيدالبكرى ردًّا على أبى علىّ القالى : « وهذا وهم من أبى على ، وإنما المراد به اللحن الذى هو ضرب من الأصوات المصوغة للتغنى ، والدليل على ذلك قوله :

• مطوقة على فنن تغنى •

---

(٦٦) اسم الشاعر من سمط اللآلى : ١ — ١٩ .
(٦٧) الأضداد : ٢٤١ والأمالى : ١ — ٥ .
(٦٨) الأضداد : ٢٤١ والأمالى : ١ — ٦ .
(٦٩) الأمالى : ١ — ٦ .

وقول الآخر :

• يرددان لحوناً ذات ألوان •

إنما أراد ذات ألوان من الترجيع ، كما قال فى البيت : بترجيع وإرنان »(٧٠) وقد أوردنا الأبيات السابقة شواهد على اللحن بمعنى الغناء والترجيع ، كما استشهد بها فى اللسان والتاج ، وكما رأى فيها أبو عبيد البكرى فى « سمط اللآلى » .

خامساً : الفطنة

ويقال منه : لحنت ألحَن لحْناً بكسر الحاء فى الماضى وفتحها فى المضارع والمصدر ، خلافاً لابن الأعرابى الذى قال: اللحن بالسكون الفطنة والخطأ سواء . قال : واللَّحَنُ أيضاً بالتحريك: اللغة (٧١) . ويمكن أن يكون هذا المعنى داخلا فى الأصل العام الذى بيناه وهو « الميل » كما قال ابن الأثير (٧٢). وقد جعل ابن فارس (٧٣) اللحن بمعنى الفطنة أصلاً مستقلاً .

ومن شواهد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحُجَّته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه . . . (٧٤) » ، أى أفطنَ لها وأجدل ، ويؤيد ذلك ما جاء فى الرواية الأخرى : « فلعلَّ بعضَهم أن يكون أبلغ من بعض (٧٥) » .

ومنه قول عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — : « عجبت لمن لاحنَ

---

(٧٠) سمط اللآلى : ١ — ٢١ .
(٧١) اللسان (لحن) .
(٧٢) المصدر نفسه .
(٧٣) مقاييس اللغة : ٥ — ٢٤٠ .
(٧٤) صحيح مسلم : ١٣٣٧ .
(٧٥) المصدر السابق : ١٣٣٨ .

الناسَ كيف لا يعرف جَوامعَ الكَلِم » ، أى فاطنهم (٧٦) .

ومن شواهده أيضاً قول لبيد يصف غلاماً كاتباً :

مُتَعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بِكَفِّهِ
قَلَماً عَلى عُسُبٍ ذَبَلْنَ وبانِ (٧٧)

وبهذا المعنى أى الفطنة فسر أبو زيد وابن الأعرابى قول مالك بن أسماء:

منطق صائب . . . . . .

سادساً : معنى القول وفحواه :

وشاهده قوله تعالى : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ) ، أى فى فحواه ومعناه ومذهبه (٧٨) .

* * *

هذه هى المعانى التى وردت لمادة (لحن) فى المعجمات وكتب اللغة (٧٩) .

والذى يهمنا هنا هو اللحن بمعنى الخطأ فى اللغة : أصواتها، أو نحوها ، أو صرفها ، أو معانى مفرداتها، وهذا المعنى متأخر عن المعانى الأخرى ، لتأخر ظهور اللحن فى كلام العرب ، وقد أشار ابن فارس إلى ذلك بقوله : « فأما اللحن — بسكون الحاء — فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية، يقال

---

(٧٦) غريب الحديث لابى عبيد : ١٣٣ .

(٧٧) شرح الديوان : ١٣٨ ، وغريب الحديث لأبى عبيد : ١٣٣ والأمالى : ١ — ٥ ، والأضداد لابن الانبارى : ٢٤٠ واللسان (لحن) .

(٧٨) اللسان (لحن) وغريب الحديث لأبى عبيد : ١٣٣ والأمالى : ١ — ٤ وراجع المعنى الثانى للحن فيما سبق .

(٧٩) فى كشاف اصطلاحات الفنون : ١٣٠٨ معنى اصطلاحى للحن عند القراء ، وتقسيمه الى جلى وخفى . وراجع أيضا مواد (خطأ — غلط — وهم) فى المعجمات .

لَحَنَ لَحْناً، وهذا عندنا من الكلام المولد، لأن اللحن محدث، لم يكن فى العرب العاربة ، الذين تكلموا بطباعهم السليمة (٨٠) ».

نشأة اللحن ومظاهره الأولى

إذا كان استخدام اللحن فى معنى الخطأ فى اللغة قد تأخر فى نشأته كما قدمنا فى الفقرة السابقة ، فإن السبب فى ذلك راجع إلى أن العرب لم يلتفتوا إلى الخطأ فى اللغة إلا حين اختلطوا بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة ، وما تبع ذلك من اتخاذ العبيد والجوارى لإدارة المنازل فى العصر الإسلامى المبكر (٨١) . وفى ذلك يقول أبو الطيب اللغوى : « إن اللحن ظهر فى كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — فقد رُوّينا أن رجلا لحن بحضرته ، فقال : أرشدوا أخاكم (٨٢) » .

ويقول أبو بكر الزُّبيدى : « ولم تزل العرب تنطق على سجيّتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليّها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجاً ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية (٨٣) » .

ويقول يوهان فك : « ولا يزال ينقصنا بعدُ كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ فى الكلام ، وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى ، عند ما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون (٨٤) » .

---

(٨٠) مقاييس اللغة : ٥ — ٢٣٩ .
(٨١) يوهان فك : العربية : ١٠ ، ١٢ .
(٨٢) مراتب النحويين : ٥ .
(٨٣) طبقات النحويين واللغويين : ١ ، ٢ .
(٨٤) العربية : ٢٤٥ .

ويروى الجاحظ أن أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى ، وأول لحن سمع بالعراق : حتىٌ على الفلاح (٨٥).

وقال ابن السكّيت (٨٦): زعم الفرّاء أن أول لحن سمع بالعراق : هذه عصاتى (٨٧) .

ويبدو أن اللحن ظهر عند العرب فى الإعراب أولاً ، وأما أخطاء الموالى فقد كان أكثرها فى نطق الأصوات العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، مثل النطق بالعين همزة فى قول زياد النَّبَطى لغلامه : «من لَدُنْ دَأوتُكَ إلى أن قلت : لَبَّىْ ما كنت تصنأ » ، أى : دعوتك ، وتصنع (٨٨) .

ومثل النطق بالحاء هاء فى قول مولى زياد الأعجم : « أهدوا لنا هِمَارَوَهش»(٨٩) ، أى حمار وحش. كما كان خطأ الموالى ظاهراً فى الصيغ أيضاً كقول أم نوح وبلال ابنى جرير ، وكانت أعجمية : « يا نوح : جِرْدان دخل فى عجان أمك »، وكان الجرذ أكل من عجينها (٩٠) ، وكقول عجمىٍّ نخاس للحجاج الثقفى ، حين سأله : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟: « شريكاننا فى هوازها وشريكاننا فى مدايتها ، وكما تجىء تكون » ،

---

(٨٥) البيان والتبيين : ٢ ــ ٢١٩ وصواب الكلمتين : عصاى ، حى (بفتح الياء فى عصاى ، وبفتحها مع التشديد فى حى) .

(٨٦) فى اصلاح المنطق : ٢٩٧ .

(٨٧) ان صح هذا الخبر فان أول لحن يكون قد ظهر فى زمن أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) ، فقد روى أبو الطيب اللغوى فى مراتب النحويين : ٨ « عن الخليل قال : لم يزل أبو الأسود ضنينا بما أخذه عن على عليه السلام حتى قال له زياد : قد فسدت السنة الناس ، وذلك انهما سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى ، فدافعه أبو الأسود » .

(٨٨) البيان والتبيين : ٢ ــ ٢١٣ .

(٨٩) المصدر السابق وعيون الأخبار : ٢ــ ١٥٩ .

(٩٠) البيان والتبيين : ٢ ــ ٢١٣ .

أى شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها »(٩١) .

وقد جمعت خمساً وثلاثين مسألة ، مما ورد من اللحن فى أوائل نشأته، فى « البيان والتبيين » للجاحظ ، و« عيون الأخبار » لابن قتيبة، و « العقد الفريد» لابن عبد ربه (٩٢) .

ومن بين هذه الحالات وجدت :

٢٠ مسألة يظهر اللحن فيها فى الإعراب.

٨ مسائل يظهر اللحن فيها فى الأصوات ، والصيغ ، ومجال استعمال الكلمة .

٦ مسائل يظهر اللحن فيها فى بنية الكلمة .

١ مسألة نشأ اللحن فيها عن التصحيف.

أما حالات الخطأ فى الإعراب فقد رويت عن شخصيات عربية معروفة بأسمائها ، كالحجاج بن يوسف ، والوليد بن عبد الملك ، وبشر بن مروان، وخالد بن عبد الله القسرى ، وعبد العزيز بن مروان ، وعيسى بن المدوّر، والحصين بن أبى الحر ، وخالد بن صفوان الأهتمى ، ومهدى بن مليل .

وأما حالات الخطأ فى الأصوات والصيغ والبنية فقد رويت عن الموالى ،

---

(٩١) عيون الأخبار : ٢ — ١٦٠ .

(٩٢) من البيان والتبيين : ٢ — ٢١٠ — ٢٢٠ وعيون الأخبار : ٢ — ١٥٩ — ١٦٢ والعقد الفريد : ٢ — ٤٧٨ — ٤٨٣ وقد اقتصرت على هذه الكتب دون كتب لحن العامة وبين يدى منها كثير ، وفيها مئات الحالات من اللحن ، لأن كتب « لحن العامة » يندر فيها ما يتصل بالظواهر الاعرابية ، ولعل السبب فى ذلك أن قواعد النحو قد وضحت بعد أبى الأسود والخليل وسيبويه ولأن التنبيه على الأخطاء الاعرابية لم يكن فى حاجة الى مؤلفات خاصة كما كانت الظواهر اللغوية الاخرى فى حاجة الى هذه المؤلفات .

وهم كذلك مذكورون بأسمائهم أو صناعتهم . كعبيد الله بن زياد، وزياد النبطى وأم نوح وبلال ابنى جرير ، وقيل مولى زياد ابن أبيه .

وهذا يؤيد أن خطأ العربى فى الإعراب كان أول مظهر من مظاهر اللحن فى أوائل نشأته . ويؤيد ذلك قول أبى الطيب اللغوى : « واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب (٩٣) » .

وقول أبى بكر الزبيدى : « ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حليها والمرضح لمعانيها (٩٤) » .

ولهذا كانت نشأة النحو سابقة على التأليف فى لحن العامة الذى يندر فى الكتب المؤلفة فيه تصحيح الخطأ فى الإعراب .

* * *

(٩٣) مراتب النحويين : ٥ .

(٩٤) طبقات النحويين واللغويين : ١ .